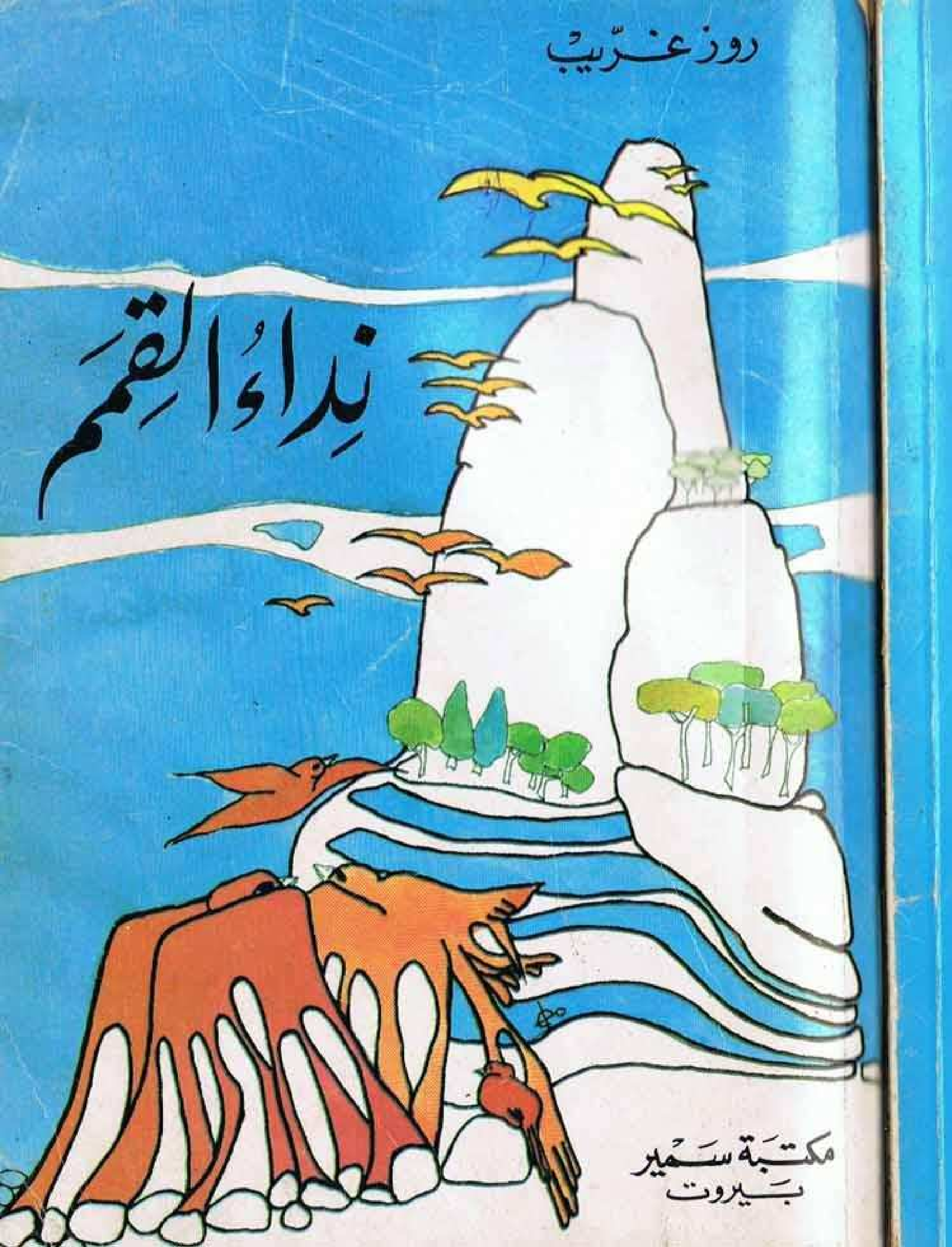


حكايات مِن أمسِ واليوم

مكتبة سمير
تلفون : ٢٢٦٠٨٥ - ٢٣٨١٨١
بيروت - شارع غورو



روز غريب

الفراشة التي تظل مرفرفة حول السراج حتى تحترق هي أسمى من الخلد الذي يعيش براحة وسلام في نفق مظلِم.

جبران

حكايات من امس واليوم

منشورات مكتبة سمير
شارع غورو – بيروت
تلفون : ٢٢٦٠٨٥ - ٢٣٨١٨١

نحن هنا

– متى يعود أخي وأبي ؟

طرح الصغير على أُمه هذا السؤال وسكت ينتظر جوابًا . كان يعلم ان الجواب واحد لا يتغيَّر : «لا أدري يا سميح . يجب أن لا نفقد الأمل . سيعودان إن شاء الله .»

مع هذا كان يتردّد السؤال على مسمع الأُم كل يوم ، وينتظر الأولاد جوابًا جديدًا فَيخِيبُ انتظارهم .

مكان الاب والأبن في البيت مَا زال خاليًا . لكن ناديا ، أُم الستة أولاد ، تـأبي التصديق بأن أولادها أصبحوا خمسة وبأن زوجها صار في عِداد الأموات . ما زالتْ تنتظر وتعاني ألم الانتظار .

كانا ينامان في غرفة واحدة. الأب نديم والابن البكر سامي، سرير الواحد إلى جانب سرير الآخر. وكان الأب يقول له: أنت بِكر إخوتك. عما قريب تعاونني في حمل المسؤولية.

يوم بلغ سامي الخامسة عشرة، أوقفه الوالد بجانبِهِ مفاخرًا بأن قامته أصبحت تجاوز قامة أبيه طولًا، وبأنه يَكبُر كل يوم في القامة وفي العقل، أليس الأوّل في صفه بين الطلاب؟ ألا تأتيه كل شهر شهادة تنطِق بتفوُّقه في الدروس وامتيازه بحُسن الأخلاق؟

كان قدوة لأولاد صفه. قدوة لإخوته الخمسة الذين يحترمونه، ربما أكثر من احترامهم لوالدهم. فقد كان «زينة البيت وشمعته المضيئة»، كما تقول الأُم. كان شديد الشعور بعبء المسؤولية الموضوعة على كتفيَه فلا يُرى إلا مفكرًا أو منهمكًا بعمل لا يتحول عنه حتى يُنهيه.

في البيت الواسع العالي السقف، حيث عاش جدُّهم المغوار الذي يحمل الصبي اسمه، غرفة مفتوحة النوافذ

للشمس والهواء. يجلِس فيها الأولاد مساءً للدرس. مع هذا، يسمّونها غرفة سامي لأنه يحرَص على ترتيبها والعناية بها. كل يوم يمسح الغبار عن الكتب المصفوفة في خزانةٍ كبيرةٍ منحوتة في الجدار القديم «الكلّين» أي المزدوج. يترك طاولة الدرس نظيفة، فارغة إلا من مقلمة وقواميس ضخمة محبوسة بين سَّادتَين. في تلكَ الغرفة يقضي شطرًا كبيرًا من وقته. مكبًّا فوق طاولة الدرس، فإذا فارقها ظلت الغرفة بعده صامتة، تحمل أثرًا من رصانة الصبي وهدوئه.

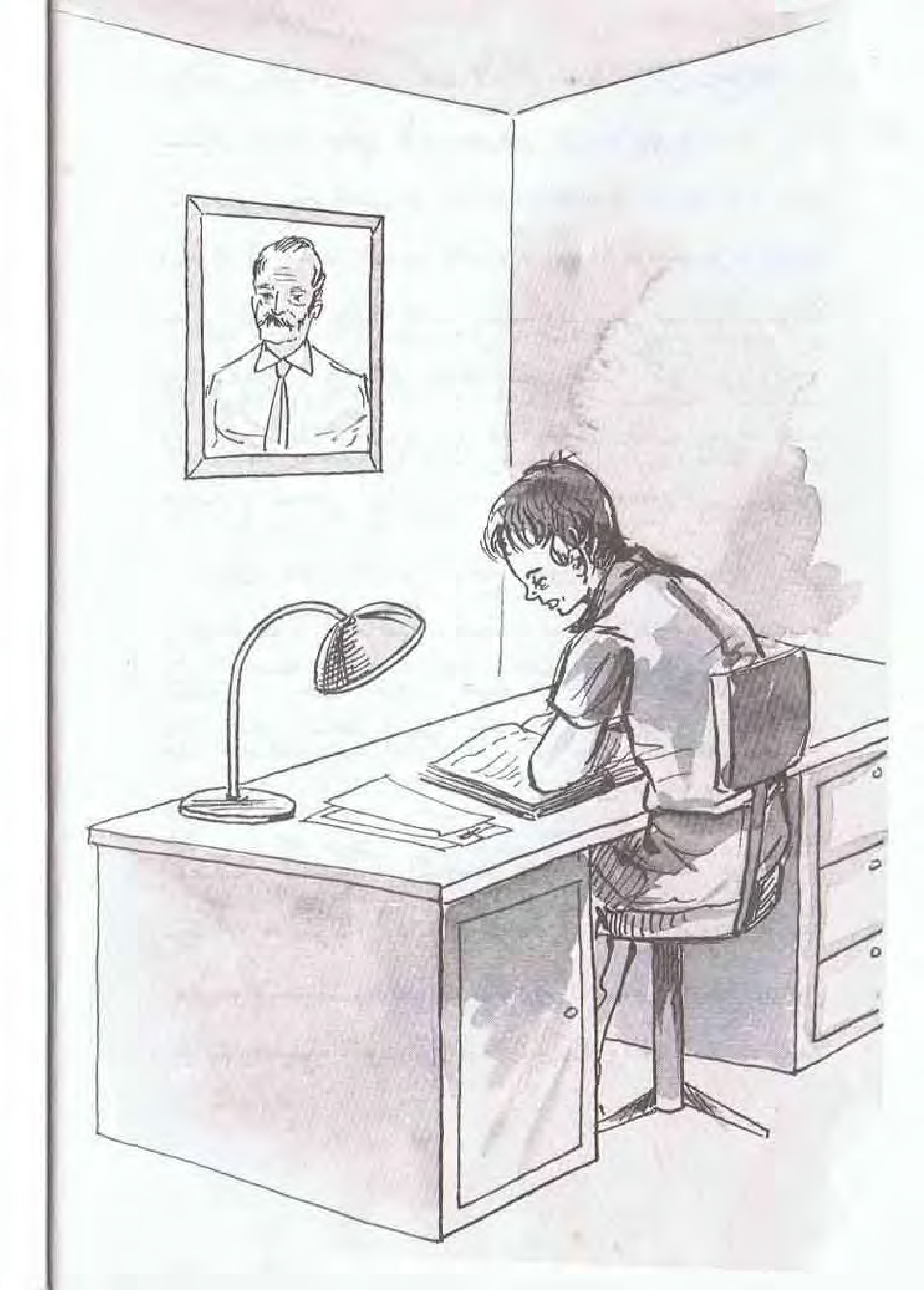
فوق طاولة الدرس ترتفع صورة الجَد الكبير. رجل بادي الرجولة، عريض الجبهة، مقرون الحاجبين، منفرج الشفتين، رحب الصدر. عيناه عينا نسر متحفز للوثوب، هذا الجد الذي شيَّد الدار ورفع ذكر البيت كان قصير العمر. قالوا انه انهار تحت عبء المشاريع التي وضع خطَطها. إنقصف كالسنديانة الشامخة هاجمتها عاصفة هوجاء، تاركًا وراءه شركاء ودائنين نجحوا في ابتلاع ثروته بطريقة الغش والاحتيال. فكان على الابن أن يكدّ ويكافح ويصل ليله بنهاره ليفي الديون التي ألزمه الشركاء بوفائها، فبَقي البيت

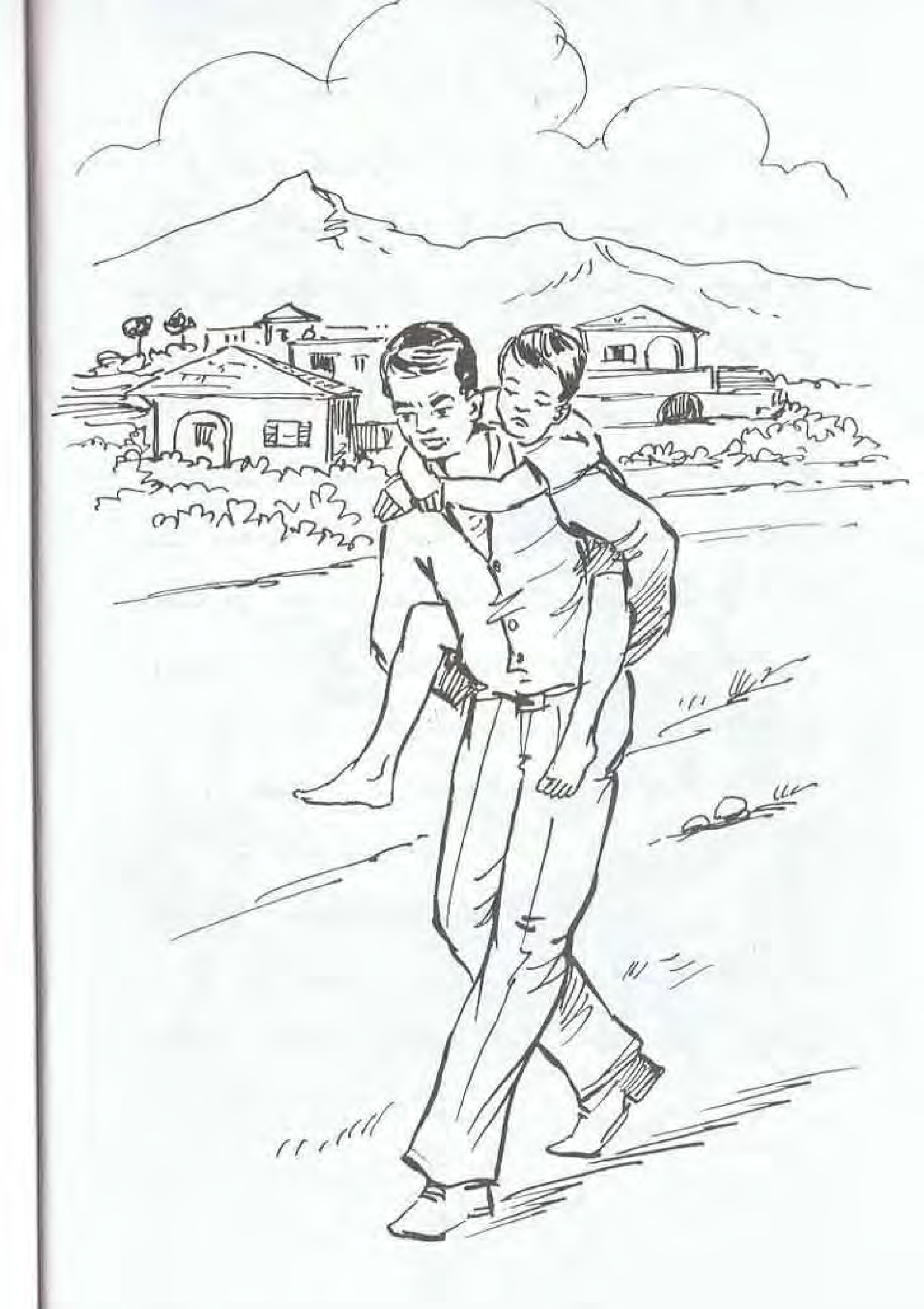
من الخراب وينقذ أسرته من الفقر.

في العشايا كان الوالد ، إذا جلَس للراحة مع باقي أسرته ، يقص عليهم أخبار الجدود الذين كان منهم جبابرة امتازوا بقوة البدن ورجاحة العقل. هذا الذي حمل على ظهره قبة الجرس وصعد بها إلى سطح الكنيسة. زعموا أن ظهره ذو سلسلتين. وذاك الذي حمل أخاه المريض على ظهره يوم كانت العربات مفقودة وذهب به مشيًا على قدميه مسافة عشر ساعات حتى أوصله إلى أحد مستشفيات بيروت. وجدَّته التي طاردت لصًا جاء يسرق البيت ليلًا في غياب زوجها. رفعت في وجهه البارودة وأَرغمته على الفرار.

كانت تلك الحكايات تُلهب خيال سامي وإخوته. فإذا أوى الصبي إلى فراشه أحاطت بمضجعه خيالات الجدود وكل منهم يهتف في وجهه: وأنت ، ماذا سيكون منك؟ أي عمل عظيم ترجو إنجازه؟

في ذلك المساء ، كان وجه السماء مكفهرًا كأنه ينذر بفاجعة ، وقد عاد الوالد إلى البيت متجهِّم الوجه ، يحمل خبرًا مشؤومًا :





– الحرب واقعة !

– الحرب ؟ صاحت الأُم بقلب راجف .

وسكتت مصعوقة لا تدري ما تقول . تذكرت ما قاسته من الحرب هي وسائر سكان بلادها ، قبل سنوات ... مرت أمام عينيها مشاهد القتل والدمار والتشريد والترويع ... مشاهد لا تذكرها إلا وينتفض قلبها هلعًا ...

حين هدأ روعها بعد قليل قالتْ :

– الحرب رسولة الموت والهلاك . إلا يمكن منعها ؟ أليس في وسع الشعب الذي ذاق أهوال الحرب منذ سنوات أن يثور ، أن يحتجّ ، أن يقف في وجه الكارثة ؟

– الحرب أحيانًا ضروريّة . إذا اعتدى عليكِ أحد ، ألا تدافعين ؟

– العاقل البعيد النظر يتلافى الكارثة قبل وقوعها . يحاول التفاهم مع خصمه . يجرّب إقناعه بأن الحرب شر ووبال على الفريقين ..

– لكن قليلين من الناس يخضعون لأحكام العقل .

وصمَت الجميع .

الحرب وقعت. كبركان انفجرت فوهتها، تقذف النيران والحُمَم، فمن يقدر على إطفائها؟

منذ تلك الليلة بدأ يدوي في آذانهم هدير المدافع وقرقعة الانفجارات، في العاصمة التي لم يفصلها عنهم سوى مسافة نصف ساعة.

يشتدّ القصف ليلًا فيحرم الناس النوم. حتى إذا طلع الفجر خرجوا إلى الشوارع يتنفَّسون، وفي وجوههم صفرة الأموات.

القلق داء مخيف يترك في الوجوه وفي القلوب آثاره المفجعة. لا يثبت له إلا النفوس القوية والقلوب الصُلبة.

القصف مستمر، متسارع، يقرب منهم شيئًا فشيئًا. غدًا يدخلون بلدتنا، فماذا نحن فاعلون؟ يقولون إنهم جيش جرّار، يستحيل على أهل البلدة مقاومتهم، لأن أكثر هؤلاء عزّل وغير مدَّربين على القتال.

أخذ الناس يجمعون ما أمكن جمعه من أمتعتهم ويستعدّون للهرب. إلا نديم والد سامي وبضعة رجال أشدّاء اختاروا

البقاء في البلدة، متحصّنين في الملاجىء، مزوَّدين بالسلاح والزاد.

– الهرب جبانة، قال نديم. يجب أن ندافع عن بيوتنا. أن نثبت وجودنا.

– أتستَطيع أن تقاوم جيشًا؟ سألت ناديا.

– هذا القبو هو لنا حِصن حصين. لن يقدروا على هدمه. فيه تحصّن أجدادنا أيام الثورات والحروب فلم يصابوا بسوء.

– لكن أسلحة اليوم غير أسلحة الأمس. بلحظةٍ يمكنها أن تدكّ أعظم الحصون.

– يجب أن أفعل واجبي. أن أُدافع عن بيتي.

– أنت متهوّر، مجنون!

– نحن قوم لم نتعود الخوف ولا الهرب. إذا قرع بابنا الخطر، قلنا له «نحن هنا، مستعدُّون للموت». إذا هربْت، ستلاحقني لعنة الأجداد، حتى آخر العمر....

إعتصم نديم مع أسرته في القبو المتين البناء الذي يقوم

عليه البيت . ومن كوة في الجدار كان يطلق النار على الغزاة .

ما لبث هؤلاء أن احتلُّوا البلدة من غير مقاومة تُذكر. وأمعنوا فيها سلبًا ونهبًا وحرقًا ، ثم شُغِلوا باقتسام الغنائم .

ظن نديم وأسرته انهم نَجوا من الخطر . لزموا ملجأهم لا يتحركون ، حتى سمعوا قرعًا شديدًا على باب القبو . ولم ينتظر القارعون أن يُفتح لهم بل أمعنوا في رفس الباب وضربه بالآلات الضخمة حتى خلعوه من مكانه .

دخل القبو عشرة رجال بالأسلحة . هجموا على أعضاء الأسرة يريدون تحطيمهم ، لكن هؤلاء قابلوهم برباطة جأش خفَّفت من حِدّة الهاجمين فتوقفوا ، وأخذ واحد منهم يستجوِب رب الأسرة :

– أأنت أطلقتَ النار ؟

– نعم .

– كبّلوه !

قال هذا مشيرًا إلى بعض الرجال الذين معه . ثم أشار إلى بقية أعضاء الأسرة فقال :

– أما المرأة والأولاد فدعوهم وشأنهم .

– لماذا تعتقلونه ؟ سألتْ ناديا بصوت يخنقه الألم . من يقوم بإعالة هؤلاء الأطفال إذا أخذتم الأب ؟

– هذا أمر لا يعنينا ، أجاب الرجل الذي انتحل صفة الزعيم .

وفيما استدار الباقون باحثين في زوايا القبو الواسع عن أسلحة أو أمتعة ينهبونها ، تقدم اثنان منهم فكبّلا نديم وأوقفاه جانبًا .

كان سامي في هذه الأثناء صامتًا ، غارقًا في التفكير. سيأخذون أباه ، لا ريب في الأمر. ماذا يفعلون به ؟ يستجوبُونهُ ، يعذّبونهُ كما يعذّبون المجرمين واللصوص . وربما يقتلونه. يقتلونه فداء عن باقي الأسرة. أمِن الحق أن يُترك وحدهُ بين أيدي هؤلاء الأشرار؟

سمع هاتفًا يناديه : «هذا يومكَ يا سامي . هذي ساعتك . برهن عن بطولتك . أبوك في ضِيق ، في حاجة إلى معين . أبوك وحيد يحتاج إلى رفيق . متَّهم يحتاج إلى من يدافع عنه .

إذا لم يُصغوا لنداء أُمك فقد يلينون لكلامك لأنك قوي الحجة ، طَلْقُ اللسان ...»

تحرّك الرجال ليسوقوا نديم مكبَّلًا . لكن سامي أوقفهم بإشارة :

– أُريد أن أرافق أبي . أن أحضر محاكمته . أن أُدافع عنه . إنْ سُجِن أُسجن معه . إن مات أَمُت معه .

شعرت الأُم بقلبها يتمزق . فتحت فاها لتطلق صرخةً سرعان ما اختنقَتْ في صدرها . بحركة عفوية مدت يديها تريد إيقاف الولد ولكن ... وقفَتْ حائرة . أتسلخه عن أبيه ؟ أم تدعه ينسلخ عنها ؟..

مرت لحظة طويلة كالدهور ... ثلاثة قلوب تتنازعها عوامل متضاربة ولا تدري علامَ تستقرّ ...

لكن الرجال المسلَّحين لم يعطوها مجال الاختيار . تقدم واحد منهم فكبَّل الولد وساقه جنبًا إلى جنب مع أبيه الذي مشى مرفوع الرأس ، بعد أن ألقى على زوجته وأولاده نظرة حملت كل ما في صدره من لوعة .

* * *

– متى يعود أبي وأخي ؟ أعاد السؤال نجيب ، ثالث الأولاد .

كان قد مضى على غياب نديم وسامي أربعة شهور أو أكثر . ولم يَفتأ الخمسة الصغار يعيدون السؤال .

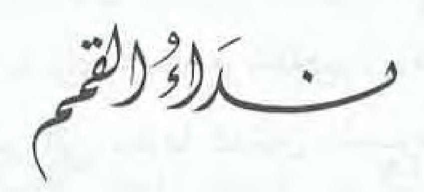
لكن هذه المرة ، بعد مرور هذه المدة الطويلة من الانتظار الفارغ ، قالت الأُم لأولادها :

– مهما يكن من أمر ، لن نستسلم لليأس والجمود . علينا أن نتعاون على العيش . أن نكسب معاشنا بأيدينا ، حتى إذا عاد يومًا نديم وسامي قلنا لهما : «نحن هنا . نحن قوم حاضرون أبدًا للكفاح ومجابهة الصعاب ، لم نتعود الخوف ولا الجبانة !»

ثم أضافت المرأة وفي عينيها وميض غريب .

– إطمئِنّوا أيها الأولاد ... ثِقوا بأنهما سيعودان !

النهاية



جلسنا حول مائدة حوت ما لذَّ وطاب ، في مقهى فاخر من مقاهي الجبل ، تَربَّع فوق ربوة مطلة على أروع ما نسجته طبيعة لبنان من لوحات يغرق فيها النظر. تهب علينا من الأعالي نسمات لا تحظى بها إلا الأماكن التي جاورت السماء ومنها هذا المقهى الذي دعي بحق «مقهى القمة».

كنا أربعة متقاربي العمر. في السن التي يبلغ صاحبها طور النُضج والحكمة. ويحلو له أن يلقي نظرةً على ماضيه يستنطقه العبر. جمال المناظر ونسمات الجبل تفتق القرائح وتحرك الألسنة. والمناسبة التي جمعتنا تثير رغبتنا في الكلام. فصاحب المقهى صديق قديم قاسمناه حياة الدرس واللهو في مدرسة

القرية أو في أروقة الجامعة . وحين تم له تشييد هذا المقهى الرائع ، متوجًا به مباني «المدينة الفندقيّة» التي شيدّها على رأس ذاك الجبل ، رأى أن يدعونا نحن ، رفقاءه القدماء ، في جملة الجماهير التي دعاها لتدشين المجموعة الفخمة التي قضى شطرًا من حياته في تصميمها .

«مقهى القمة» . قالها الرفيق الجالس إزائي ، مفخّمًا حرف القاف ، مبرزًا حركة الكسر في «القمة» ، كما يليق بصحافي قديم ضليع من اللغة العربيّة ، حريص على قواعدها ، يرى من واجبه أن يلقي فيها درسًا كلما سنحت له الفرصة ، حتى ولو كان الموضوع الذي يعالجه بعيدًا كل البعد عن اللغة وقواعدها .

وتابع الصحافي القديم قوله : إني سعيد والله لأن رفيقنا العزيز تمكن من تشييد هذا الصرح الذي يعد مفخرة من مفاخر السياحة اللبنانيّة . هذا الصرح كلفه الملايين واقتضى بناؤه نحو عشر سنين أنفقها في تفتيت الصخور وشق الطرق ونقل الأتربة التي صنع منها الحدائق الزاهرة . إنه أشبه بقصور بابل ذات الحدائق المعلقة .

تحرك الرفيق الثاني الجالس بجانبه ، وكان حتى هذه اللحظة مغمض العينين ، مستسلمًا لنشوة الجمال الذي ملأ حواسه . فإذا به يستيقظ فجأة ليقول :

– قصة شكري ناصيف قصة عجيبة تثير اهتمامي منذ زمن ويجب أن أقصها عليكم . كلكم عرفتم شكري ناصيف معرفة سطحيّة أما أنا فكنتُ أقرب الناس إليه . كلانا نشأ في أسرة متوسطة الحال في قرية جبليّة ، وكلانا كان أصغر أعضاء أسرته . أخوه البكر أسعد ، مثل أخي سامي ، تخرج في الجامعة ومارس وظيفته وما لبث حتى صار صاحب أسرة . كذلك أخي كان صاحب عائلة وراتب محدود . لكنه التزم دفع نفقاتي الجامعيّة تاركًا لي مجال الانصراف إلى دروسي دون أي شيء آخر...

دخلتُ يومًا مطبخ الجامعة فصُعقت حين رأيت شكري ناصيف يلبس «الوزرة» أو المريول الأبيض وفي يده فوطة سفرة .. كان يخدم في مطعم الكلية حينًا وفي المقهى حينًا آخر لسد حاجته إلى النقود .

سألته : ماذا تفعل ؟

أجاب : أشتغل كما ترى .

قلت : وأين أخوك الموظف الكبير ؟ لماذا لا تطلب منه مساعدة ؟

فقلب شفتيه وقال : أكره شيء عندي الاستجداء . أخي صاحب عيلة وبالكاد يسد نفقاته .

– وأنت تعمل خادمًا في المطبخ ؟

أجابني : ولِمَ لا ؟ كل عمل يستحق الاحترام إذا كان فيه فائدة .

قلتُ متعجبًا : أنا لم أستجد أخي ولم أطلب مساعدتهُ بل هو الذي تطوع للأنفاق على تعليمي وأبى أن يذكر لي المبلغ الذي يدفعه عني للإدارة كل سنة . هكذا يكون الأخوة وإلا فلا ...

أذكر ان الجدال طال بيننا لغير طائل ، لم يتمكن أحدنا من إقناع الآخر بصحة رأيه . وأذكر إني من ذلك الحين أخذت أحتقر صديقي شكري ناصيف وأنظر إليه بعين

النقمة والنفور . كنا نتلقى دروسًا واحدة وتخرجنا في كليّة التجارة بدرجة عالية لكن شكري نجح في إحراز الأولية في جميع دروسه . ثم ذهب كل منا في سبيله . أخذتُ أنا في التنقل من وظيفة إلى أُخرى حتى رسوتُ على وظيفة عاديّة وراتب مقبول . قريبًا سأحال على التقاعد وأعيش عيشة خمول . أما هو فقد احتقر الوظيفة كما احتقرت أنا عمله في المطبخ . إختار المغامرة والعمل المستقل . هجر البلاد متنقلًا بين القارات . انتقل من مشروع صغيرٍ إلى مشروع أكبر وها هو الآن صاحب ملايين . كنتُ قبلًا أحتقره حين أراه لابسًا الوزرة وحاملًا فوطة السفرة ، أما الآن فصرت أحتقر نفسي وأكنّ لهذا الرجل إعجابًا عميقًا . إذا أمكنني أن أراه بين الجموع المزدحمة حوله سأصافحه وأهنئه .

قال الرجل عبارته الأخيرة بصوت بادي التأثر لفت إليه الرفيق الثالث الذي كان حتى هذه اللحظة غارقًا في الصمت . فاستدار في كرسيّه وقال :

– أنا لا أحترم شكري ناصيف لأنه عِصامي فالعصاميون

كثيرون . لكني أعجَب به لأنه شق الصخور وارتقى القمم وشيد فوقها هذه المدينة العجيبة فعمله شبيه بأعمال السحرة . وفي رأيي أَن لا قيمة للمال إن لم ينفقه صاحبُه في إنجاز عمل كبير أو مأثرة رفيعة القدر . أما الذين يكدسون المال لينفقوه على ملذات الطعام واللباس واللهو ، أو يجمعونه ليسلموه إلى الوارثين الذين يبذرونه ساخرين ممن جمعه ، فأقل ما يقال فيهم أنهم أغبياء أو قصار النظر .

– هل شكري ناصيف متزوج ؟ هل له أولاد ؟

طرحتُ هذا السؤال حين سمعت صاحبنا يذكر الوارثين وتبذيرهم . إذ ذاك رأيته يفتح عينيه ويرفع يديه متحمسًا ليقول :

– كل ما سمعتم عن شكري ناصيف كلام صحيح لا يَرقى إليه شكٌ ، لكنه شديد النقص . فحقيقة الرجل لا يعرفها سواي .

– هات حدّثنا ، هتفنا جميعًا بصوت واحد . ماذا تعرف عن هذا الرجل الغريب الأطوار ؟ لقد أثرتَ فضولنا .

– ما أعرفه عنه حري بأن يدوَّن في الكتب ، قال جليسنا

الثالث متبجحًا . شكري ناصيف هو الإنسان الوحيد الذي استهوتني عشرته ، أنا الإنسان الذي لم يؤنسني في شبابي سوى عشرة الكتب والدفاتر . لازمته وكنت أقرب إليه من نفسه طوال عشرين سنة . شغل بعد تخرجه في الجامعة وظيفة إداريّة لكن صاحب العمل قدَّم عليه شخصًا لا يضاهيه نباهة ومقدرة فدفعه إباؤه وكبرياؤه إلى ترك الوظيفة والسفر إلى البرازيل حيث باشر تجارة مستقلة . كنتُ رفيقه ومديرًا لأعماله الضخمة ومشاريعه الجبارة ، فما كان يضرب إلا بالحجر الثقيل ، كأنما قلبه قُدَّ من هذه الصخور التي عايشها . رافقته في مجاهل البرازيل وصحاري أفريقيا التي كانت مسرحًا لمغامراته ، لكنه كان دائمًا يحلم بالرجوع إلى وطنه وقريته .

دخلتُ عليه يومًا فوجدته حزينًا ، منقبض النفس ، على غير عادته . كان بيده رسالة جاءته من والديه وحين سألته عن سبب كآبته روى لي حكاية ماضيه بتفاصيلها .

كان في صغره يشكو إهمال والده له وتحقيره لامكاناته . فقد باع الوالد قسمًا من أملاكه ليرسل ابنه الأكبر أسعد

إلى الجامعة ثم يمهد له سبيل الوظيفة والزواج . لكنه رفض الأهتمام بابنه الأصغر الذي كان يتحرق شوقًا إلى العلم . ولما سئل عن السبب أجاب انه لا يتوسم في الولد خيرًا ولا يرى في العلم ضمانة لمستقبل أولاده . وأضاف الأب : هوذا أخوه الذي أنفقتُ على تعليمه أموالًا طائلة ، ماذا أفاد من العلم ؟ بالكاد يتوصل إلى تحصيل ضروريات العيش ...

لكن الأُم أنبرت لمساعدة الأبن متحدّية موقف زوجها . باعت سوارين ذهبيين كانتْ تحتفظ بهما لأيام العسر . وأخذت تستدين المال لتعليمه ، مؤملة أن تفي دينها مما تحصله من الأنكباب على أشغال الإبرة والصنارة التي برعتْ فيها براعة فائقة . ومع أن شكري ناصيف عمل في المطعم – كما يقول صاحبنا – لتحصيل بعض نفقاته ، كانتْ أُمه أكبر معين له على إكمال علومه وتأمين حاجاته . وحدها آمنت به وشددت عزائمه ...

وقد رافقته في الغربة صورة أُمه . ظل يذكر موقفها النبيل منه ودينه لها . كان يحمل فوق صدره حرزًا أعطته

إياه يوم ودّعها فقالتْ له وهي تحبس دموعها : «أُريد أن أراك تعود إلينا سالمًا ولو لم يحالفك التوفيق» . فأقسم لها بأن يعود إلى القرية مهما طالت غيبته . وسيعود حاملًا أكاليل النجاح .

كان يتلقى من حين لآخر رسائل تروي له أخبار الأهل والقرية . تقول له حينًا إن أُمه مريضة أو إن أباه أصبح عاجزًا غير قادر على الشغل . فيتألم ويقول : «وددت لو أستطيع العودة الآن لكن الأشغال تضطرني إلى التأجيل . والمال الذي في حوزتي لا يحقّق الآمال» .

أخيرًا عاد بعد غياب يقارب عشرين سنة . عاد ليرى أباه وأمه في عداد الأموات . أخوه الأكبر باع البيت القديم وانتقل بأسرته إلى قرية ساحليّة تخلو من وعورة الجبل ومشقة العيش بين الصخور . قريته التي أحبها وأراد أن يقضي فيها بقية عمره تكاد تفرغ من السكان . لم يبق فيها سوى المقبرة التي ضمت عظام والديه وأجداده ، وبضعة بيوت حجريّة متداعيه .

لكنه كان مصمماً على تحقيق مشروعه الكبير الذي استهدف به تعمير القرية وإنعاشها . نصحه السماسرة بمشترى أراض سهلية تهون معالجتها واستغلالها لكنه أصر على مشترى الأرض في قريته الجبليّة الشامخة . واستغل أصحاب الأرض إصراره فرفعوا أسعارهم حتى بلغت أرقامًا خياليّة . واختلقوا له منافسين في الشراء ومزايدين حمّلوه من المتاعب والأهوال ما لم يحتمل مثله في ديار غربته . لكنه لم يتراجع بل رضي بأن يبذل كل ما لديه من نقود لشراء الجبل بأجمعه والتخلص من المنافسين .

وفجأة وجد نفسه فارغ اليدين إلا من الأراضي الوعرة التي سُجِّلت باسمه . فلم يقنط ولم يلعن أهل الجشع والطمع بل صح عزمه على الرجوع إلى أفريقيا ليواصل العمل . ولما رفضت أنا مرافقته في مغامرته الجديدة ، وتسلمت الوظيفة التي أشغلها حاليًا في معهد مهني ، رجع وحده ، وأنفق عشر سنوات أخرى في جمع المال لإتمام مشروعه الكبير وهكذا كان ...

توقف المتحدث برهة يجمع فيها أفكاره ثم قال :

– شكري ناصيف الآن رجل كهل ، أشيَب ، وحيد ، بعد ثلاثين سنة من الكفاح في ديار الاغتراب . في وجهه غضون عميقة تحدّث عن كفاحه وتَروي مغامراته . تسألونني عن زوجته ؟ لا أدري شيئًا عنها . لعلها رفضت العودة معه إلى هنا وبقيت في بلادها . لكني أعتقد أن شكري ناصيف سعيد . سعيد لأنه أنجز المهمة التي نذر لها نفسه ووفى بالعهد الذي قطعه لأمه .

* * *

في هذه الأثناء كانتْ جموع المحتفلين بتدشين المجموعة الفندقيّة تزحف متّجهة نحو الجبل . لم يسمع لزحفها أية جلبة ، كأنما سيطرت على أفرادها رهبة المكان وراعهم شموخ الجبل وفخامة الأبنية التي توسدت تلك المرتفعات ، فحبسوا أنفاسهم وخفَّفوا وَقْع خُطاهم .

كذلك نحن الأربعة المتحلقين حول المائدة المثقلة بالأطعمة المختارة . سيطر علينا الوجوم وداعبت أجفاننا نسمات رقيقة تغريها بالانغلاق والراحة .

لكن أغنية إنكليزية حفظتُها في سن الشباب كانتْ تتردد في ذهني وتشق طريقها إلى أوتار حنجرتي . فهمهمتها ثم ترنمت بها على مسامع جلسائي ، معيدًا هذا القرار الذي يختصرها :

«لا أريد الجلوس على قمة الدنيّا وحيدًا ...»[1] .

غير أَن الرفيق الذي عاشر شكري ناصيف عشرين سنة وزعم أنه درس نفسيته ، عارضني بقوله :

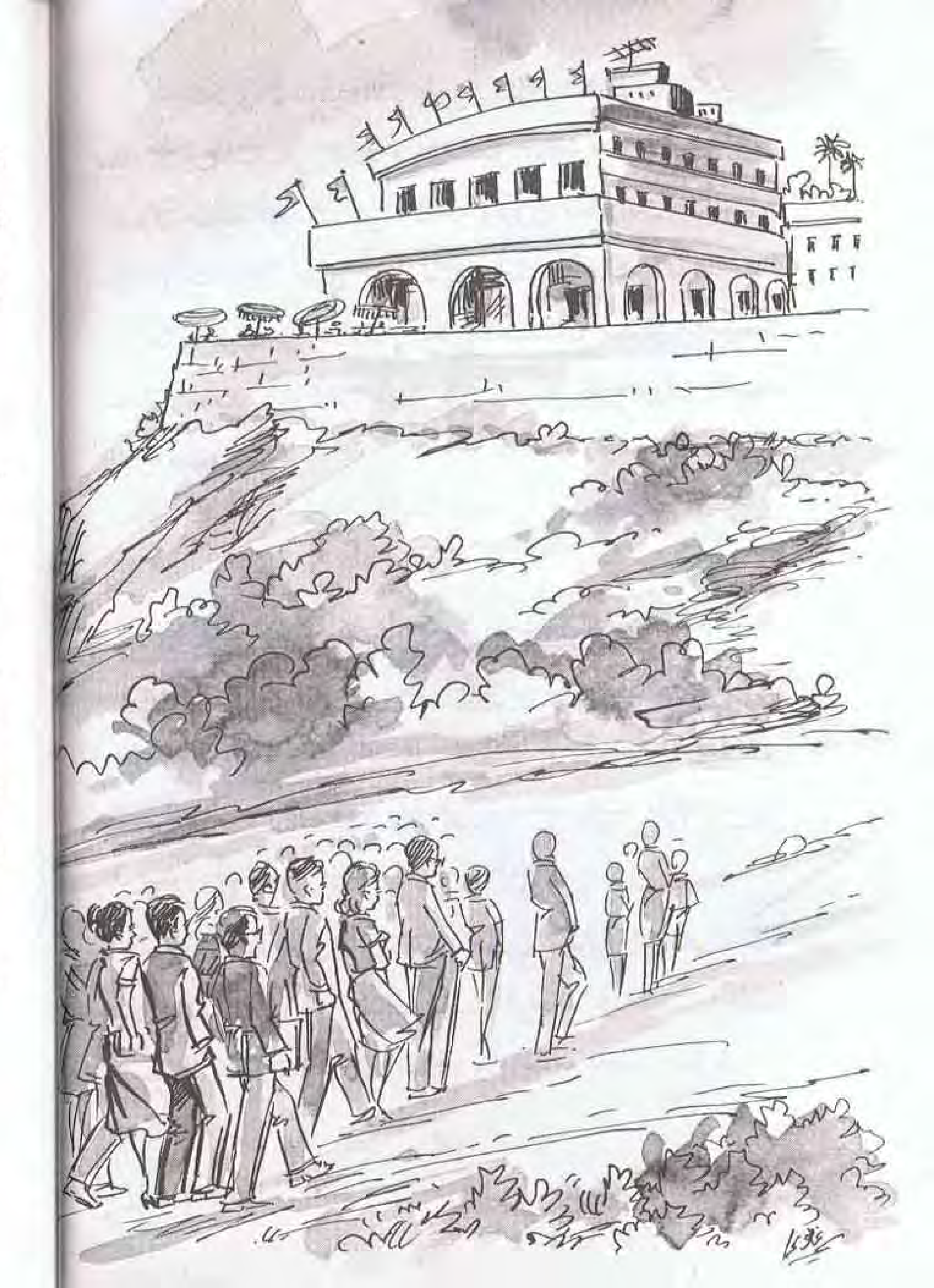
– لا شك ان الناس مختلفون في آرائهم وهذا من حسن الحظ لأن في الاختلاف والتنوع جمال الحياة ومتعتها . أنت يعجبك أن تترنم بأغنيتك الإنكليزية التي توجز فلسفتك في العيش . أما هو فكان يترنم بأغنية أخرى ، أعتقد انه أخذها عن شاعر لاتيني قديم ، تصف سعادة الإنسان المنفرد . وفي ظني أنه عنى المنفرد بتصرُّفه ، المنكر للتقليد والتبعيّة ...

النهاية

---

١) القرار في الانكليزية هو :

I don't want to be sitting on top of the world,
If I had to be sitting alone.



الذي يبقى

الريح الصحراويّة تهب جافة ، عاتية ، فوق الأهرام الرابضة ربوض الأزل في صحراء مصر. تنسف الرمال التي تنزلق عن جوانبها لتتراكم على أقدام أبي الهول ، كأنها تريد أن تنسج حوله غشاءً يرد عنه عوادي الزمن وتجعله رمزًا لخلود العقل .

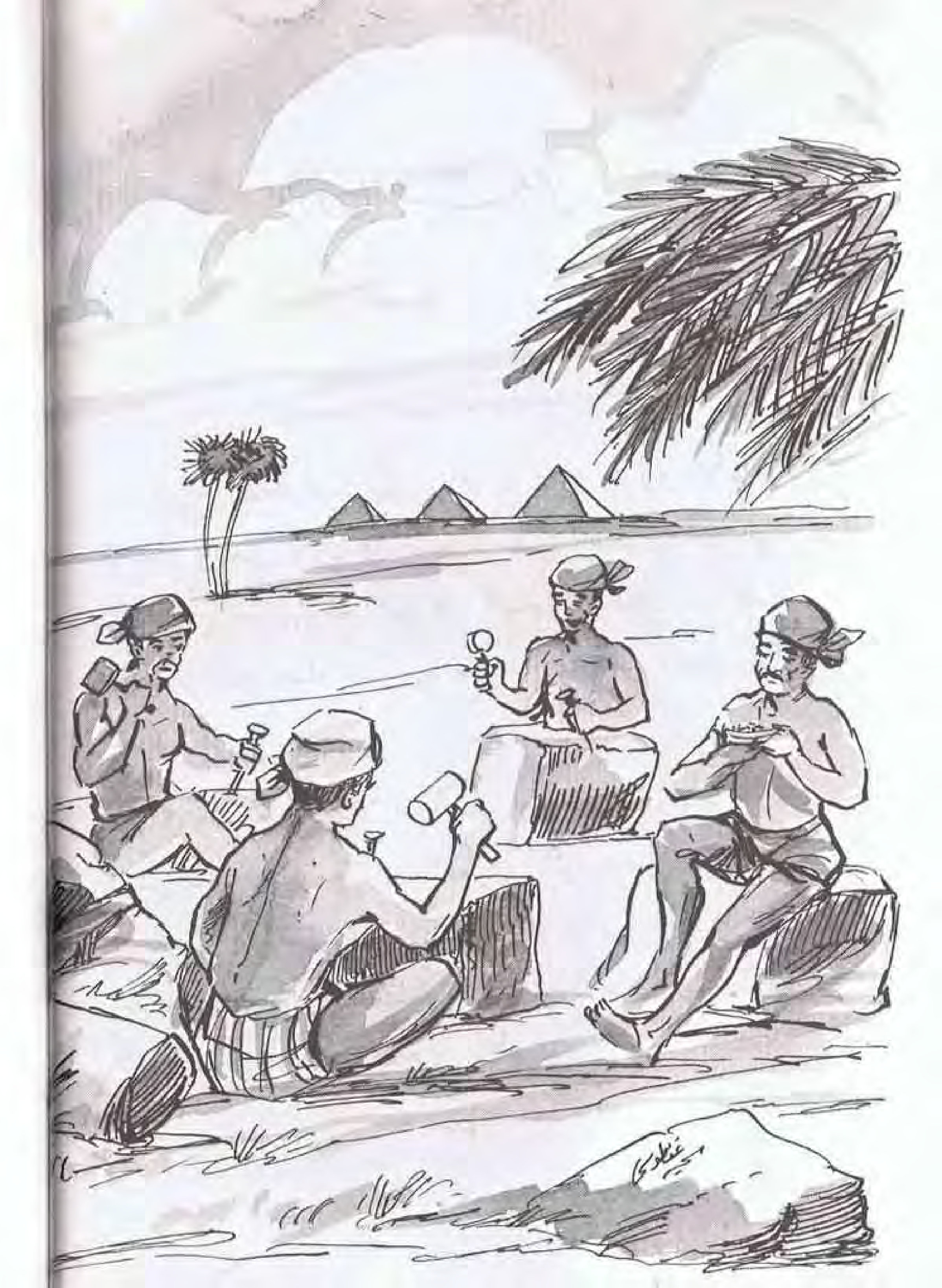
في منبسط من الأرض يمتد بين القاهرة والأهرام ، انتشر ألوف من العمال ، المشمَّري الأثواب حتى الركُب ، قد عصبوا رؤوسهم بمناديل تقيهم لذع الشمس وأكبُّوا فوق حجارة يقطعونها أو يصقلونها . يهيئونها لترصف في الطريق الجديدة التي تصل القاهرة بالأهرام .

عند منعطف تظلّله أشجار النخيل ، توقَّف بضعة عمال ليمسحوا العرق عن جباههم ويتبادلوا الحديث . ومد أحدهم يده إلى جيبه فأخرج منها علبة تنك محشوة بالتبغ الخشن ، أخذ منه قبضة يحشو بها لفافة يريد تدخينها ، لكنه أعاد العلبة فجأة إلى جيبه وعاد هو ورفاقه إلى عملهم الشاق . ذلك لأن الوكيل المطربش مر بجانبهم ، معقود الحاجبين ، مستعدًا لينتهر أو ليضرب بالسوط كل من تحدثه نفسه بالتوقف عن العمل ولو لحظة من الزمن .

لكن الرفاق ، رغم هذا ، يجدون فرصة للتهامس بما يجيش في صدورهم من خواطر . لأنهم لم يتعودوا ضبط ألسنتهم عن موضوع يثير اهتمامهم . فإذا ابتعد الوكيل وأمنوا شرَّه ، مالوا إلى الحديث بأصوات منخفضة وهم يسترقون اللحظ إلى ما حولهم .

– جاءت الأوامر بأن نعمل ليل نهار. لأن الطريق يجب أن تنتهي في أيام معدودة .

– أربعة أيام ؟



– أربعة أو عشرة ... يجب أن نفرغ منها في خلال ستة أسابيع .

– كل هذا بالسخرة ...

– الأمير مستعجل جدًا . أنفق على بناء الطريق ألوف الجنيهات التي لم يصلنا منها شيء .

– أتعرفون لماذا هذه السرعة ؟ لأن الطريق يجب أن تنتهي قبل موعد فتح قناة السويس ، لكي يمر عليها ملوك الفرنج في طريقهم إلى الأهرام .

– نعم . لتمر عليها ملكة الفرنسيس في عربتها الفخمة .

– يقولون إنها جميلة جدًا .

– وماذا نستفيد نحن ؟ أيسمحون لنا بمشاهدتها ؟

– لِمَ لا ؟ والله سأصعد إلى رأس الهرم لأراها ...

توقفت الألسن عن الحركة وانشغلت الأيدي بالتقطيع والنحت . لأن الوكيل المطربش عاد من جولته ، منتفخ الصدر ، معقود الحاجبين مستعدًا لزجر المتباطئين وضربهم بالسوط إذا اقتضى الأمر .

في قصر عابدين كان الخديوي إسماعيل متربعًا فوق ديوان مكسو بالحرير ، يدخن غليونًا حشاه بالتبغ الفاخر ، يُملي أوامره على سكرتيره الخاص الجالس على مقعد إلى يمينه .

الأمير مستدير الوجه ، مترهّل الجسِم ، يتكلم وعيناه نصف مغمضتَين . قصير اللحية ، يرتدي الملابس الفرنجيّة ، لا يميّزه عن ملوك الفرنج سوى الطربوش التركي القصير الذي يكسو رأسه هيبةً ونبلًا .

– يجب تهيئة القصر الجديد بأسرع وقت لضيافة خمسة آلاف من عِلِيَةِ القوم .

– كل هذا جاهز يا مولاي ، أجاب السكرتير .

– والأُوبرا التي وضعها فردي ؟

– جاهزة للعرض . الممثلون سيلبسون مجوهرات كلفت عدة ملايين من الجنيهات . وستبرز القاهرة بأبهى زينة .

– والطريق الجديدة بين القاهرة والأهرام لمرور العربات ؟

– أصبحت جاهزة كذلك .

– لا تنسَ أن تضيف تكاليف سفر المدعوين ، ذهابًا وإيابًا ، إلى تكاليف إقامتهم .

– ستة آلاف ؟

– ستة آلاف .

– هذا يعني مبالغ طائلة من الجنيهات .

– لا بأس . أمامنا فرصة نادرة نظهر فيها للسلطان العثماني إن عزيز مصر يستطيع أن يكون أعظم منه سخاء . أراد إذلالي بلقب متواضع . لقب «خديوي» ، لكني سأُفهمه أن العظمة ليست بالألقاب .

في هذه الأثناء كان فردينان دوليسبس ، فاتح قناة السويس ، منشغلًا بتفقُّد القناة التي تقرر تدشينها في صباح السابع عشر من نوفمبر ١٨٦٩ برئاسة الأمبراطورة أُوجني .

عشية ذلك اليوم شاع الخبر بأن صخرة سقطت في القناة ووقفت حاجزًا دون مرور السفن أي دون حفلة التدشين . واكتشف فردينان أن اثنتين من آلات إختبار العمق سقطتا فوق صخور جاثمة في القعر فأصبحتا على مستوى يعرّضهما

للارتطام بسفن المرور . إذ ذاك بادر الرجل إلى تفجير الحواجز بكميّة من الديناميت ونجح في إخلاء الطريق للسفن .

كان هذا خاتمة العقبات التي جابهها وأستطاع تذليلها طوال خمس عشرة سنة . كافح خلالها لتحقيق حلمه الكبير الذي قاومته دول أوروبا وعلى رأسها انكلترا . لأنها رأت في تزعُم فرنسا لمشروع دوليسبس دليل انبعاث المطامع الفرنسيّة التي أوجدت حملة نابوليون بونابرت إلى مصر . وقد نجحت إنكلترا يومذاك في إفشال الحملة وإرغام بونابرت على ترك مصر . فكيف تسمح لأبن أخيه بتجديد محاولته ؟

«أحفروا قناة السويس تخلقوا ساحة حرب . القناة أخطر من مضيق البوسفور» . هذا ما قاله أرنست رونان الفيلسوف الفرنسي محذّرًا قادة أوروبا . ومع هذا ، وعلى الرغم من المعاكسات التي لقيها المشروع ، استطاع دوليسبس أن يكسب تأييد الأمير محمد سعيد وخلفه إسماعيل وتمكن من تأليف شركة بحرية عامة برأس مال ضخم . وبمساندة أوجني ووساطتها ، أضاف نابوليون الثالث إلى رأسمال الشركة أربعة

وثمانين مليون فرنك تعويضًا عن الغاء السخرة بأمر السلطان العثماني الذي عارض المشروع . وطالت معارضة السلطان ، بتحريض من إنكلترا ، مدة ثلاث عشرة سنة . لكنه رضي أخيرًا باقرار امتياز الشركة وترك العمل يسير والسخرة تُستأنَف . وها هو صباح السابع عشر من تشرين الثاني – نوفمبر – ١٨٦٩ ، يطل عليهم حاملًا بشائر النصر والفرح .

بدأ الأشراف والأعيان الذين دعاهم الخديوي ، يتوافدون واحدًا بعد آخر ، وموكبًا بعد موكب . دوق سانت ألبنس الفرنسي ، الأمير توفيق ولي العهد المصري ، أمير ويلز الانكليزي ، وآخرون غيرهم ، جاءوا ليشهدوا هذا الحدث العجيب الذي أدى إلى ازدهار مرفأ بور سعيد وقيام مدينةِ الإسماعيلية ، واجتماع بحرين متباعدَين : الأحمر والمتوسط ، وربط ثلاث قارّات فصلَت بينها الطبيعة .

قبل موعد تدشين القناة بيومين ، جرى انضمام البحرين في حفلة ترأسها الخديوي . كانت مياه البحر الأحمر محجوزة وراء سد قائم في الطرف الأعلى من البحيرات المُرَّة . وكان سد آخر على بعد كيلومتر يمنع مياه المتوسط من التدفق .

وقف فردينان وقال : «منذ خمسة وثلاثين قرنًا تقهقرت مياه البحر الأحمر بأمر موسى . واليوم بأمر حاكم مصر تعود المياه إلى وضعها السابق» .

أعطى أسماعيل إشارة فانفتحت السدود وتدفقت مياه البحر الأحمر جارفة في سيلها رمال الشط وما عليها من آلات . فهرع الرجال إلى السد الشمالي يدعمونه ويمنعونه من هجوم المياه واكتساحها له . وفي لحظةٍ التحم البحران واستوت مياههما كبحر واحد .

قُبيل اليوم المعين لتدشين القناة ، أخذ المتفرجون يتدفقون من كل حدب وصوب لحضور الحفلة . أتراك وتَتَر . أوكرانيون وبدو . نساء ورجال . عجائز وأطفال . ألوف من الأوروبيِّين جاءوا من غير دعوة ، فنُصبت لهم الخيام ، وحظوا بضيافة إسماعيل ... في منطقة بحيرة التمساح وحدها كان ثلاثون ألفًا من المتفرجين ، بينهم خمسة آلاف في القصر الذي شيده أسماعيل لهذه المناسبة ، وهيأ للضيوف الذين احتلوه خمس مئة من الطهاة وألفًا من خدم المائدة .



القناة جاهزة لاستقبال الأمبراطورة أوجني في يختها: «النسر»، الذي ستعبر فيه القناة، لأول مرة، من جانب لآخر، مارّة بالبحيرات المُرّة وبحيرة التمساح، إلى بور سعيد. أكثر من ثمانين مركبًا، معظمها مراكب حربيّة، وفي طليعتها مراكب الأنكليز، اجتمعتْ للقاء الأمبراطورة، ولدى وصولها أُطلقت مدافع الفرح والترحيب.

كان الطقس جميلًا. ألوف الأعلام تخفق فوق رؤوس الجماهير المختلفة الأعراق والأزياء.

«لم أر في حياتي منظرًا بهذه الروعة» قالت الأمبراطورة.

كان وراء الخديوي، أمبراطور النمسا وأمير هولنده وعدد كبير من الامراء. وقف فردينان بينهم، يستعد لاستقبال نسيبته أوجني وقلبه يطفح سرورًا. أوجني أحبُّ شخص إليه، لا لأنها نسيبته، ونصيرة مشروعه فحسب، بل لأنها امرأة كبيرة القلب، فياضة الشعور. سحرت قلوب أصدقائها وعارفيها بشخصيتها الفذة. حين مرورها باستانبول في طريقها إلى مصر، نجحت بلباقتها في إزالة التوتر الذي ساد علاقة تركيا بمصر، فأقام لها السلطان حفلة تكريم نادرة المثال،

دلت على التاثير الذي تركته في نفسه تلك المقابلة .

أيمكن أن ينسى فردينان فضلها على مشروع القناة ؟ أينسى أنها بذلتْ لأجله كل ما لديها من نفوذ لدى الامبراطور؟ كلما فكَر هذا في التراجع كانت هي وراءه لتقول : «لا ! ...» لقد كانت هي المحرّك لكل خطوة إيجابيّة خطاها نابوليون الثالث ولولاها لما كُتب لمشروع القناة أي نجاح . فمن يكون أحق منها بتدشينها ؟

بدت الأمبراطورة بملابسها الحريريّة المزخرفة وحلاها المتوهجة مثل إحدى سلطانات ألف ليلة وليلة . لكن الجمال الذي شعّ من وجهها الملائكي وعنقها المكشوف وذراعيها البضّتين كسف بريق الحلى وروعة الملابس . فلو لبستْ ثياب راعية لما كانت أقل فتنة .

— أهنئك يا عزيزي ، قالتْ أوجني وهي تعلق الصليب الأحمر لجوقة الشرف على صدر دوليسبس . لقد حققت حلمك الباهر . أصبحت محط أنظار العالم . بلغت قِمة المجد .

— بملء الفخر أذكر فضلك على المشروع ، قال فردينان .

— ما قمت به لا يستحق الذكر .

— بالعكس . أما أنا فقد كنت منساقاً إلى عملي بدافع لا يُرد . سيطر علي الحلم واستعبدني ولأجله ضحيت بكل شيء ...

— لا تندم يا فردينان . لا يستطيع الإنسان أن يحقق جميع أمانيه . ولا بد من تضحيه بعضها في سبيل أمنية كبرى .

في المساء ، حين أوى فردينان إلى مضجعه . أخذ يراجع في ذهنه قول الأمبراطورة . وخطر له السؤال : بماذا ضحّت أوجني حين تزوّجت الأمبراطور؟ ألم يكن بريق المجد الذي استهواها ؟ هل أحبتْ الأمبراطور أم أحبت العظمة والأبّهة اللتين طوّق بهما رأسها ؟

سعت أوجني وراء المجد ولكن ، هل يدوم المجد ؟ وهتف به صوت آخر من أعماق نفسه : وهل يدوم الحب ؟

لم يمضِ على تدشين القناة سنة واحدة ، حتى إندلعت

نار الحرب بين فرنسا وألمانيا . فانهزم نابوليون الثالث في حرب السبعين وأنهار عرشه . واضطُرَّت الأمبراطورة أن تهرب مستخفية إلى أنكلترا حيث قضت بقيّة عمرها منفيّة ، مجهولة ، كأية أمرأة عاديّة . تجترّ ذكريات الماضي وأمجاده الضائعة . في وقت واحد فقدت زوجها وعرشها وحبها ومجدها .

وفي منفاها كتبت إلى نسيبها دوليسبس تقول :

«فقدتُ كل شيء . لكن أمرًا واحدًا يمنحني عزاء . هو أني بذلتُ كل ما أمكنني بذله في سبيل مشروع عظيم يحمل الخير والمنفعة للبشريّة . هذا وحده الذي يبقى» .

النهاية

من حكايات الجدّة

كريمة ، زوجة شاهين الأسمر ، جالسة على مقعد مُريح ، تحت السَقِيفة التي تقابِل ما نُسَمّيه اليوم «فَرَنْدا» ، مُنهمِكة في حَبك قِطعة مستديرة من «الدَنتِلّا» ، تَصلُح غِطاءً لطاولة . يداها تُحرِّكان الصِنّارة برشاقةٍ عجيبة ، فيَخرُج منهما النسِيجُ الأبيضُ الناعم مُزَيَّنًا برسوم وزخارف ، مثلَ لوحةٍ صَنَعها رسُّام ماهر .

بين حين وآخر ، ترفع المرأة رأسها وتُلقي نظرة على البَحر الممتَدّ على مسافةٍ قريبةٍ من بيتها . تُصغي إلى هديره فيُطرِبُها ، كما يُنعِشها لونُه الأزرق . قبل سنتَين كانت الساحة أمام بيتها الحجَري مكشوفة للشمس والمطر ، لا يُمكِن اتّخاذها

مكانًا للجلوس أو للاسترخاء ، كانت أرضها خشِنة ، مفروشةً بالحصى والتراب . لكن المال الذي جمعَته هي وزوجها من موسِم الحرير ومن شُغل الصِنّارة ، أَمكنهما من بناء هذه السقيفة التي صنع سطحُها من القرميد الأَحمر ، وارتكزتْ على أعمدة من حجر تُعطي مدخل البيت فخامةً ومناعة . وفُرشَت أرضها بالأَسمنت وهو مزيج من الترابة الفرنجية والرمل ، فصارت مَلْساء ، تمنح الماشي فوقها راحةً واطمئنانًا .

كان ذلك يوم ازدهرَت في لبنان صناعة الحرير ، أو تربيةُ القزّ . كانت هذه الصناعة مَورِد رزق لكثيرين ، وذاع قول الناس : «موسِم القزّ موسِم العِزّ» ، يستفيد منه المّلاكون أصحاب بساتين التُوت ، الشجر الذي تغتذي منه ديدان الحرير . ويستفيد منه العمَّال الذين يمارسون تربية القز وحلَّ الشرانق في المصانع أو «الكراخين»[1] . ويستفيد منه التجَّار الذين يشترُون بالاتِ الحرير ، وهي الرُزَم الضخمة من الخيوط الذهبية البرَّاقة ، وينقلونها إلى أَسواق أَوروبا حيث تُباع

١) مفرد كراخين كَرخانة أي مصنع الحرير ، والكلمة فارسية الأصل .



بأثمان ضَخمة أيضًا. كان لهذه الصناعة ثلاثة مواسِم تُعطي أصحابها دَخْلًا : موسِم الشرانق التي تُباع للتجّار بعد قِطافها في أواخر الربيع . موسِم الجِزّة وهي أكداس الورق اليابس الباقي من غِذاء الديدان ويُستعمَل عَلَفًا للماشية . موسِم التشارين أي ورق التوت الأخضر الذي يُباع في شهرَي تشرين ويُطعَم كذلك للماشية فتسمَن عَلَيه . لذلك أصبحت أماكن تربية القز مراكز حركة صناعيّة وتجارية تجذِب الأقارب والأباعد من أهل البلاد .

حين دخلت كريمة بيت شاهين ، لم يملِك الزوج سوى فدّانَين من الأرض ، أي نحو ثمانية آلاف مِتر مربّع . لكن عمل المرأة بِصنّارتها ونجاح الرجل في استغلال أَرضه ، مهّدا لهما شراءِ فدّان ثالث . من ذلك الحين أصبح الرجل مُولَعًا بالأرض كولعها هي بشغل الصِنّارة ، فلا تراه إلا ذاهبًا إلى السَهل أو راجعًا منه . وبتعاونهما تمكّنا من بناء السقيفة وإرسال أولادهما الأربعة إلى المدرسة . وهما الآن يستعدّان لإرسال الولد البكْر ، البالغ إحدى عشرة سنة ، إلى مدرسة داخلية في بيروت ..

شمسُ العصر تتسلّل إلى داخل السقيفة ، تُداعب يَدي المرأة ووجهها . وتَهُبُّ عليها نسمةٌ بليلة من ناحية البحر.. لا بُدّ أن يحضر شاهين بعد قليل ، فليس من عادته أن يتأخر عن مواعيده . هل تنهض لإعداد العَشاء ؟ الأفضل أن تنتظر لعلّه يطلب الباذنجان المقلي بدلًا من البَيض أو اللبْنَه والزيتون .

كان من عادة الرجل أن يشاركها في أعمال البيت كما تشاركه في تحصيل النقود ، لكنها ترى الآن من واجبها أن تدعَه يرتاح من رِحلته إلى القرية المجاورة حيث تعاقَد مع أحد التجار على سعر جديد للشرانق يفوق الذي عرضه عليه تاجرُ قريَته . سيعود بكميّة حسنة من النقود . وبأقلّ من ربع ساعة ستنتهي من إحضار العشاء ، ما دام عندها طبّاخ كبير وفحم سريع الاشتعال . كل ذلك من بركات الموسِم .

فجأةً يُقرعَ الباب . لم يتأخر شاهين سوى بِضع دقائق ولا بُد أن يحدّثها عن السبب .

إستقبلَتْه بالسلام والتَرحاب . ناوَلها الطَربوش فعلّقته

بالشنكل . كان على النار وعاء مملوء بالماء الساخن فغسل الرجل وجهه ورجليه . بدّل ثيابه وجلس يستريح بينما ذهبت كريمة لإعداد العَشاء ،

لكن فكرها كان مشغولًا بالنقود التي قبضها . هل أعطاه التاجر السعر الذي وعده به ؟

طرحَتْ عليه هذا السؤال حين جلسا يتناولان البَيض المَقلي مع سَلَطَة خَس وفرفَحِين .

– نعم ، قال شاهين ، دفَع النقود حتى آخر قُرش . ثلاث وعشرون ليرة ذهبية ونصف .

فتحَت المرأة عينين مدهوشتَين .

– والليرات الآن في زنّارك ؟ هاتِها لأضعها في الخزانة .

– لم يبقَ معي منها إلا ثلاث عشرة ونصف .

– ماذا ؟ كيف تقول إن التاجر دفعها كاملة ؟

– هذا صحيح ، لكني تبرّعتُ بعشرٍ منها لمساعدة إنسان محتاج .

قالها ببرودة ، كأنه يُلقي خبرًا عاديًا . لكن المرأة فوجئَت

بالخبر ولم تُرِد تصديقه لأول وهلة . ظنَّت زوجَها يمزح أو أن الليرات العشر سقطَتْ منه وضاعت . لكن حين سلَّمها الكَمَر[1] الخالي من أيّ ثُقْب ، وعدَّت ما في داخله ، تأكَّد لها أنه لم يَقُلْ غير الصِدق ، فجلَست صامتة والغيظ يعقُدُ لسانها .

إنتظرَت أن يقول شيئًا . أن يُخبرها كيف ذهبت الليرات العشر . لكنه لزِم الصمت ، هو كذلك . جلس متكئًا عل المقعد المُريح وأرخى أجفانه كمَنْ غلَبَهُ النعاس .

لكن المرأة لم تستطِع الصبر . كان صدرها يَغلي غضبًا ويكاد ينفجر . مع هذا تمالكَتْ وسألته مصطنِعة الهدوء :

– حدِّثني ما الذي جرى ؟ لمن أعطيت المال ؟

إستجمع الرجل أفكاره وقال : عندما عَبَرتُ بدابّتي الحد الفاصل بين قرية العزيزيّة وبلدتِنا هذه ، صادفتُ عند المفترَق رجلين يتعاركان وقد قبض أحدهما على عُنق الآخر يُريد خنْقه .

١) الكَمَر : زنّار غليظ الحَبْك ، متين الصنع ، ذو جَيب طويل تُحفظ فيه النقود .

نزَلْتُ عن دابَّتي واستطلعتُ سببَ عِراكهما فأجاب أحدهُما ، الذي كان مُمسِكًا بِحَلْقِ الآخر :

– هذا الرجل يَدِين لي بِعَشْر ليرات ذهبية تعهّد بإرجاعها عند الطلَب . طالبتُه عدة مرات فامتنع عن الدفع .

– أحلِف بالله أني مُستعِدّ لتسديد المال ، قال الرجل الآخر ، لكني طلبتُ منه أن يُمهِلَني فأبى ..

– أُريد مالي ! صاح الدائن وهو يُزَمجر كالنِمْرِ الهائج .

– وتُريد قتله من أجل عشر ليرات ؟؟ سأله شاهين .

– أَقتُله وأبحث في جيوبه وزنّاره أو آخذ كل ما عليه من ثياب وكل ما يحمله من أشياء ثمينة !

– خُذ . فَتّش ... هذا جَيبي فارغًا . هذا زنّاري .. هذا ردائي !

لكن الدائن كان في حالة هياج أفقدَتْه صوابَه ، فجدَّد هجومَه على غريمه ، وللحَال كنتُ بينهما . أَخرجتُ من الكمَر الذي يَشُدُّ وَسْطي عشر ليرات ، ونقدته إياها ، فأخذها وولّى راكضًا ، غير ملتفِت إلى ما وراءه .

هدأ روع المرأة بعد سَماع القِصّة ، ساد السكون لحظةً بين الزوجَين ، ثم خطر لها خاطر فسألَتْه :

– هل عرفت مَن هما ؟ هل عرفت اسم المديون على الأقل ؟

– لا . لم أعرف اسمه . لكنه حين شكرَني سأل عن اسمي فذكرتُه له .

– مهما يكنِ العُذر الذي تُبرّر به عملك ، لا أراك إلا مُخطِئًا .

– تريدين أن أدَع الواحد يقتل الآخر ؟

– أتظنُّه كان ينوي القتل حَقًّا ؟

– هكذا أعتقد . كان الرجل في حالة تُشبه الجنون . أَعطيتُه المال لأمنعه من ارتكاب جريمة .

– أنت رجل متوسّط الحال ولستَ مُلزَمًا ببذل مالك لغريب .

– أنا لا افرّق بين غريب وقريب ، قال شاهين بلهجة حازمة . كل إنسان في ضِيق له عليّ حقُ المساعدة .

– أنت إنسان عنيد ، ترفض الإذعان للحق ولا فائدة من مناقشتك ... ليست هذه المرة الأولى التي تضع فيها مالك في غير موضعه .

قالت المرأة هذا واستدارت لإتمام بعض الأعمال ، قبل أن تأوي إلى غرفة النوم .

في الفراش ، ظلَّت ساعاتٍ تتقلَّب وهي تُفكِّر في النقود التي خرجت من يد زوجها وزعزعَتْ ميزانيَّتها . أشياء كثيرة يجب أن تمتنع الآن عن مشتراها ، لكن رسوم المدارس يجب أن تبقى جاهزة ، لا تَمسُّها يَد . يجب أن تشتري المِغسلة التي سيَجْري إثباتها في الحائط بجانب المطبخ . أما النمليّة فيمكن تأجيل شرائها لأن التي عندها تحتمل البقاء بضعة شهور.. والصيفيّة على شطّ البحر؟ هل تتخلّى عنها؟ هل يفوتها تحقيق هذا الحُلم الذي داعب مخيِّلتَها منذ سنوات ؟ لا . لا بُد من مضاعفة عملها بالصِنّارة لتربح في الأسبوع ليرة كاملة بدلًا من نِصف ليرة . ثم تقتصد في مشترى الثياب والأحذية وحاجات أخرى . فيتوفَّر لها المال لبناء خيمة على شط البحر ، قريبًا من بيت جيرانها الأغنياء ، فتستمتِع هي

وشاهين والأولاد بتنشُّق هواء البحر المُنعِش والاستحمام بمياهه التي تقوّي العضلات وتَشُدّ العِظام .

مضت الأزْمة من غير أن تترك وراءها ذيولًا . جرى كل شيء حسب تدبير الزوجة فلم يشعر أهل البيت بالخسارة التي حلّت بهم . أُرسل الصبي إلى الداخلية وعادت المواسم تحمل إليهم خيراتِها كالمعتاد . زاد دَخْل كريمة من شغل الصِنَّارة ونجح موسِم القز نجاحًا منقطع النظير ، زاد محصول الشرانق ، وارتفعت أسعارها وخيَّم السرور على بيت شاهين .

فيما كان الرجل جالسًا تحتَ السقيفة القرميد هو وزوجته وبعض صغاره في يوم من ايام حزيران ، إذا بالباب يُقرَع ، ويقف أمامه رجل معه دابّة وفوقها حِمل كبير .

– هذا بيت شاهين الأسمر ، أم أنا غلطان؟ سأل الواقف بالباب .

– هو بعينه الذي يكلّمك ، أجاب شاهين .

– أنا الرجل الذي وفَيتَ دينه ، أنا الذي دفعتَ عنه عشر ليرات ذهبية ، جئتُ لأُخبرك أن الحظ ساعفني هذه

السنة . نجحَتْ تجارتي وتدفَّقت علي الأرباح . وها أنا أُعيد إليك مالكَ مع الشكر .

قال الرجل هذا وسحَب من عُبِّه صُرّة مال ألقاها بين يدَي شاهين .

– عُدَّها إذا شئت ...

أخذ شاهين الصرّة ودفعها إلى امرأته التي عدَّت ما في داخلها فإذا هو إحدى عشرة ليرة ذهبية .

أراد صاحب البيت إعادة الليرة الزائدة إلى الرجل الغريب . لكن هذا رفض أَخْذها . وأَنزل عن ظهر دابَّته حِملًا من الجَوز والزبيب والتين المجفَّف ، فوضعه أمام صاحبة البيت .

بعد أن استراح الرجل برهة تحت السقيفة المواجهة للبحر ، وشرب كأسًا من الليموناضة ، استأذن بالرجوع إلى قريته لأن أشغاله الكثيرة تَضطرُه إلى ذلك . وذهب بعد أن تبادل هو وشاهين وزوجتُه عباراتِ الشكر والمودّة ، وتواعدوا على اللقاء في مناسبة أُخرى .

– أنا التي أخطأ ظنّي هذه المرة ، قالت كريمة لشاهين



بعد انصراف الزائر الغريب . لم تصنع المعروف في غير أهله ولم تبذل مالك لإنسان يُنكِر الجميل ..

لكن شاهين كان يُحدِق إلى الأُفق بعينَين حالمَتين . رأت وجهه متهلّلاً كمن يستعيد ذكرى طيّبة . ثم أفاق من ذهوله وقال :

– حين أعطيتُ مالي لم أفكّر في النتيجة ولم يخطُرْ ببالي أن أتساءل أَمُخطىء أنا أم مُصيب ... كنت أَوَدُّ لو لم يُرجِع الرجل إليَّ النقود ولم يحمِلْ إليَّ الهدايا .. إن الفرح الذي غمرني حين لمحتُ علامَات الانفراج والامتنان في وجهِه بعد أن سدَّدتُ دَينَه ، يفوق كل سرور شعرت بهِ في ما مضى من حياتي ، أُؤكِّد لكِ يا كريمة أن في العطاء لَذَّة تفوق لذّة الأخْذ ، إنها تجرِبة نادرة ، أرجو أن يُتاح لكِ تذوُّقها . كما أُريد أن تعلمي أني لن أَتأخَّر عن تجديدها كلما سَنحَتْ لي الفرصة .

النهاية

أسئلة

نحن هنا

١ – أي مسوؤلية كان يشعر بها سامي ، بِكر اخوته ؟
٢ – كيف أثّرت في نفسه اخبار الجدود؟
٣ – لماذا رفض والد سامي الهرب من الحرب ؟
٤ – أي خواطر مرَّت في ذِهن الصبي حين كبّلوا والده ؟
٥ – كيف برهنت أم الأولاد عن عزيمتها ؟

نداء القِمم

١ – ما معنى قول شكري ناصيف : «كل عمل يستحق الاحترام إذا كان فيه فائدة» ؟
٢ – كيف تعبّر القصة عن طموح البطل وإصراره على بلوغ القِمَم ؟
٣ – ما معنى قول الراوي : «في الاختلاف والتنوُّع جمال الحياة ومتعتها» ؟ أعطِ امثلة .
٤ – هل كان شكري ناصيف غريب الاطوار؟ كيف ؟
٥ – أيهما أضمن لرقي المجتمع ، التفرُّد والشذوذ ام التقليد والتبَعية ؟ أتظن كلتا الحالتين ضرورية ؟ لماذا ؟

الذي يبقى

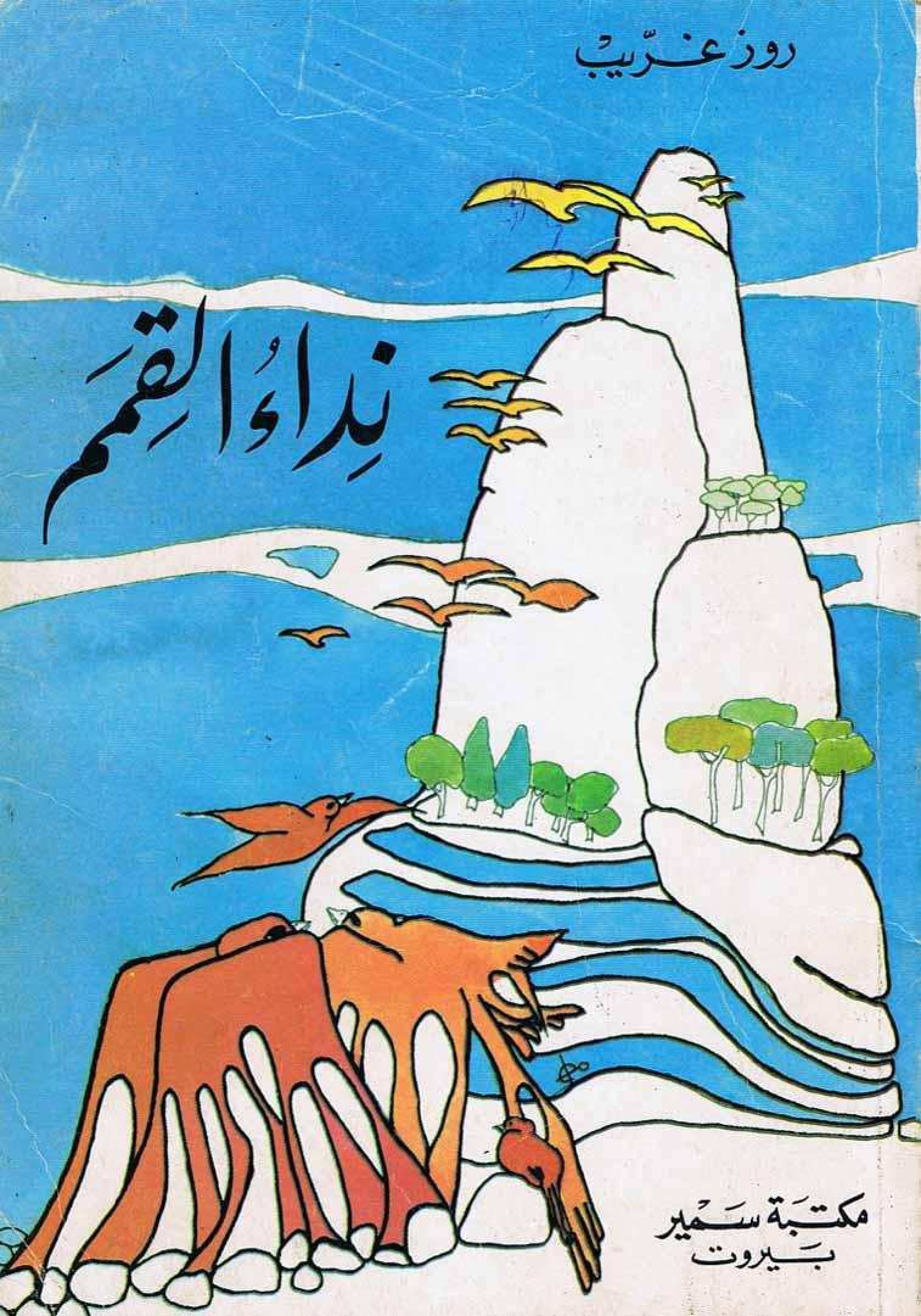
١ – أي سنة تمَّ فتح قناة السويس ؟
٢ – لماذا قاومت انكلترا مشروع فتح القناة ؟
٣ – ماذا تعني كلمة «عزيز» في قولهم : «عزيز مصر» ؟
٤ – ما الذي أغرى دولسپس بفتح القناة فنذر حياته لهذا المشروع ؟

من حكايات الجَدّة

١ – لماذا كان موسم القز موسِم العز؟
٢ – كيف تدل القصة على أن تعاون الزوجين كان السبب في نجاحهما ؟
٣ – ما هي بعض مظاهر اقتصادهما ؟
٤ – ما معنى قول الرجل : «ان في العطاء لذة تفوق لذة الاخذ» ؟ أعطِ امثلة من اختبارك .
٥ – أي كلمات في القصة شاعت في عهد أجدادنا وقلّ اليوم استعمالها أو زالت من الوجود ؟[1] .

محتوى الكِتاب

منشورات مكتبة سمير
شارع غورو – بيروت
تلفون : ٢٢٦٠٨٥ – ٢٣٨١٨١


روز غرّيب
نِداءُ القِمَم
مكتبة سمير
بيروت